الخطابة :

أشتهر العرب منذ عصر ما قبل الاسلام بالخطابة . وعرفوا بفصاحة اللسان . وقوة البيان . وبراعة التعبير . وشدّة التأثير . وازدادت الخطابة ازدهاراً في عصر الرسول والخلفاء الراشدين . وبلغت القمة في عصر بني أمية لتوفر دواعيها الدينية والاجتماعية والسياسية . وظلت رائجةً في العصر العباسي الأول . وبقيت المنابر قائمةً تدوّي بأصواتها الهادرة . تدعو الناس للدولة الجديدة . وتلمُّهم حولها . وتجمعُ قلوبهم في حُبّها . وتندّدُ بالدولة السابقة وتزري برجالها . وقد اشتهر الخليفة الأول أبو العباس السفاح بالقدرة الفائقة على اثارة الناس والهاب مشاعرهم في خطبه . من ذلك قوله حين بويع بالخلافة : « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه . وكرّمه وشرّفه وعظمه . واختاره لنا . وأيّدهُ بنا . وجعلنا أهله وكهفه . وحصنه والقوّام به والذابين عنه . والناصرين له : وخصّنا برجم رسول الله صلى الله عليه وآله . وأنبتنا من شجرته . واشتقّنا من نبعته . وأنزل بذلك كتاباً يتلى . فقال سبحانه : (قل لا أسألكم عليه أجراً الاّ المؤدة في القربى) .(٦٠٢) فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله . قام بالأمر أصحابه (وأمرُهم شورى بينهم)(٦٠٣) فعدلوا وخرجوا

---

(٦٠١) جمهرة رسائل العرب ٣ : ١١٣ .
(٦٠٢) سورة الشورى ، الآية ٢٣ .
(٦٠٣) سورة الشورى ، الآية ٣٨ .

خمصاناً .(٦٠٤) ثم وثب بنو حرْب وبنو مروان فابتزُّوها . واستأثروا بها . وظلموا اهلها . فأملى الله لهم حيناً . فلما اسفوه(٦٠٥) انتقم منهم بايدينا وردّ علينا حقنا . فأنا السُّفاح المبيح والثائر المبير »(٦٠٦) .

وبرز عدد من ولاة الدولة العباسية وقوادها بالخطابة . وقد وصلت الينا مجموعة كبيرة من خطبهم . منهم داود بن علي والي مكة والمدينة لأبي العباس السفاح . قال الجاحظ : « كان أنطق الناس واجودهم ارتجالاً . واقتضاباً للقول .ويقال انه لم يتقدم في تحبير خطبة قطّ »(٦٠٧) .

وظلت الخطابة السياسية نشطة قرابة قرن من الزمن في البيت العباسي . فكان فيه خطباء بارزون من الخلفاء أمثال المنصور والمهدي والرشيد والمأمون . وكلها تؤكد أحقية العباسيين بالحكم وصلتهم بآل الرسول صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك ضعفت . ولم نعد نجد خليفة يملأ السمع بخطبة . ولاسيما بعد ذهاب هيبة الخلافة وسيطرة الأعاجم على مقاليد السلطة . وتصريف شؤون الدولة بأنفسهم .

ونجد الى جانب الخطب السياسية خطباً دينية وجهادية وحفلية . وكانت الخطب الدينية تفيض بالوعظ والنصح والارشاد . وتلقى في الغالب أيام الجمع والأعياد . وقد شارك فيها عدد من الخلفاء . منهم المأمون في قوله من خطبة له في يوم جمعة : « الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه . ومستوجبه على خلقه . أحمدهُ واستعينه وأومنُ به وأتوكّل عليه . وأشهد ان لا اله الاّ الله وحده لا شريك له . وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله أرسلهُ بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده . والعمل لما عنده . والتنجُز لوعده . والخوف لوعيده : فانه لا يسلم الاّ من اتقاه ورجاه . وعمل له وأرضاه . فاتقوا الله عباد الله . وبادروا آجالكم بأعمالكم . وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم . وترحلوا فقد جُدّ بكم . واستعدوا للموت فقد أظلكم . وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا . وعلموا أنّ الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا : فانّ الله لم يخلقكم عبثاً ولم

---

(٦٠٤) خمصاناً : جياعاً .

(٦٠٥) آسفوه : اغضبوه .

(٦٠٦) شرح نهج البلاغة ٧ : ١٥٤ .

(٦٠٧) البيان والتبيين ١ : ٣٣١ .

يتركم سدى ... نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لاتبطره نعمة . ولا تقصّرُ به عن طاعته غفلة . ولا تُحلُّ به بعد الموت فزْعة . انه سميع الدعاء . وبيده الخير . وإنه فعال لما يريد »(٦٠٨)

أما الخطب الحربية أو الجهادية فكانت تأخذ طابع الاستنهاض والاستبسال وشحذ الهمم وبذل النفوس . مثل قول عبد الله بن طاهر في تحريض الجند على قتال الخوارج : « إنكم فئةُ الله المجاهدون عن حقّهِ . الذابّون عن دينه . الذائدون عن محارمه . الداعون الى ماأمر به . من الاعتصام بحبله . والطاعة لولاةِ أمره . الذين جعلهم رُعاة الدين . ونظامَ المسلمين . فاستنجزوا موعود اللهِ ونصره . بمجاهدة عدوّه وأهل معصيته . الذين أشروا وتمرّدوا . وشقّوا العصا . وفارقوا الجماعة . ومرقوا في الدين . وسعوا في الأرض فساداً . فإنه يقول تبارك وتعالى : (إن تنصروا الله ينصرْكُم ويُثبّتْ أقدامكم » . فإنه الوَزَرُ المنيعُ . الذي دلّكم الله عليه . والجُنةُ الحصينةُ التي أمركم الله بلباسها . غُضّوا أبصاركم . واخفتوا أصواتكم في مصافكم . وامضوا قُدُماً على بصائركم . فارغين إلى ذكر اللهِ . والاستعانة به . كما أمركم الله . فإنه يقول : « اذا لقيتُم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفلحون »(٦١٠) . أيدكم الله بعزّ الصّبر . ووليكم بالحياطة والنصر »(٦١١) .

وهناك خطب تعرف بالحفلية تلقى في المناسبات كاعلان البيعة للخليفة أو ولي العهد . والمآتم والأفراح والمواسم والوفود وهي في الغالب قصيرة ومؤثرة على نحو ما قالته احدى الاعرابيات وقد تعرضت للخليفة المنصور في طريق مكة بعد وفاة ابي العباس السفاح : « ياأمير المؤمنين احتسب الصبرَ . وقدّم الشكرَ . فقد أجزل الله لكَ الثواب في الحالين . وأعظم عليك المنةَ في الحادثين . سلبك خليفة الله . وأفادك خلافة الله . فسلم فيما سلبك . واشكر فيما منحك . وتجاوز الله عن أمير المؤمنين . وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين »(٦١٢) ولما توفي الخليفة المنصور دخل ابن عتبة مع الخطباء على الخليفة المهدي فسلّم ثم قال : « آجرَ الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله . وبارك لأمير المؤمنين فيما خلّفه له أمير المؤمنين بعده . فلا

---

(٦٠٨) عيون الاخبار ٢ ، ٢٥٢

(٦٠٩) سورة محمد ، الآية ٧ .

(٦١٠) سورة الأنفال ، الاية ٤٥ .

(٦١١) العقد الفريد ٤ ، ١٢٤ .

(٦١٢) صبح الاعشى ٩ : ٢٧٨ .

مصيبة أعظم من فقدِ امير المؤمنين . ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين .
فاقبل ياأمير المؤمنين من الله أفضل العطيَّة . واحتسب عنده اعظم الزرية »(٦١٣)